

مدينة (تيواون) في السنغال معقل لنشر الإسلام والثقافة العربية

عبد العزيز صار

طالب دكتوراه: مكونة اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

أصل تسمية مدينة تيواون

ترجع الروايات الشفوية أصل تسمية مدينة تيواون إلى نبوءة متداولة في التراث المحلي مفادها أنه هذه الأرض، التي لم تكن مأهولة في السابق، سيكتب لها مستقبلا مشرقان وستغدو موطنًا مباركًا يحمل في طياته ذكرى رجل رباني عظيم، منحدر من أصول فلانية(التكرور)، وتشير النبوءة إلى أن هذا الرجل سينزل ضيفا على أهل المنطقة، وسيقابل بحفاوة، وكرم من ساكنيها.

ومع تعاقب الزمن، تحققت تلك النبوءات بقدوم الشيخ الحاج مالك سه بن عثمان، رضي الله عنهما، اذي كان حضوره إلى هذه الأرض بمثابة نقطة تحول تاريخية. فقد أضفى الشيخ على هذه الإشارات الروحية دلالات تبعث الأمل وتبشر بالخير للأجيال القادمة، وكانت المنطقة آنذاك مأهولة بجماعات من طبقة تيدو المعروفة بانغماسها في الترف والملذات، وكان من بينهم من يعتنق معتقدات وثنية تناهض الإسلام.

غير أن استقرار الشيخ الحاج مالك رضي الله عنه في هذه الأرض غير ملامحها الروحية، والثقافية، والاجتماعية، إذ حولها إلى مدينة للعلم والتركيز، ومركز لإشعاع التوحيد ونور الإسلام. أصبحت تيواون بعد ذلك واحة للسلوك القويم، وانتشرت منها القيم الإسلامية إلى أرجاء شتى.

وفي العصر الحديث، تُعد تيواون من أبرز المدارس التعليمية والتربوية في العالم الإسلامي، كما تُعتبر من أقدس المحاريب التي يؤمها المؤمنون من مختلف الأقطار، خاصة خلال موسم المولد النبوي الشريف، حيث تُقام الاحتفالات تليدًا لسيرة خير البرية، خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، باعتباره النموذج الأكمل والقُدوة الأسمى للإنسانية جمعاء¹.

¹- AtoumaneNdiayeDoumbia, (Tivaouane en image: L’histoire de la ville depuis 1886), Maguilien, 2011.

تأسيس زاوية مدينة (تيواون)

الزوايا الثلاثة للشيخ الحاج مالك سي ومنجزاتها الثقافية العربية الإسلامية. تُعد الزاوية التي أنشأها الشيخ الحاج مالك سي بمدينة تيواون أولى معالم مشروعه الروحي والثقافي في السنغال، وقد أصبحت مع مرور الزمن مركزاً إشعاعياً للثقافة العربية الإسلامية. تليها زاويتان أخريان أسسهما الشيخ بنفسه؛ واحدة في دكار العاصمة، وأخرى ثالثة في مدينة سانت لويس السنغالية.

هذه الزوايا لم تكن مجرد أماكن للعبادة والذكر، بل مثلت مراكز تعليمية وتربوية وثقافية ساهمت بشكل فاعل في ترسيخ الهوية الإسلامية وتعليم اللغة العربية، ونشر معاني التصوف السني السمح، وإرساء القيم الروحية السامية في المجتمع السنغالي. ويُعد هذا المشروع امتداداً لرؤية روحية وتربوية عميقة استلهمها الشيخ الحاج مالك سي من سلفه المجاهد الكبير الحاج عمر الفتوي تال، رضي الله عنه.

ولد الحاج عمر الفتوي في قرية هلووار (Halwar) منطقة فوتا تورو شمال السنغال سنة 1797م. وقد حمل هم الدعوة إلى إقامة دولة إسلامية موحدة في غرب إفريقيا، تُعلي من شأن الدين وتحفظ المصالح الإسلامية والوطنية في وجه الاستعمار والوثنية. أطلق مشروعه الجهادي سنة 1852م.

ويُحسب للحاج الفتوي تال عمر كما يُروى عن الدكتور عامر صمب - أنه كان أول من حجَّ إلى بيت الله الحرام من بين العلماء السنغاليين، كما يُعد أول من نظم الشعر العربي في السنغال، وهو ما يعكس عمق تواصله الثقافي والديني مع المشرق الإسلامي، وحرصه على نشر علوم الشريعة واللغة العربية في بيئة كانت آنذاك تحت ضغط الاستعمار ومحاولات طمس الهوية الإسلامية¹. فإن الشيخ الحاج مالك سي رضي الله عنه الذي ولد في قرية غايا Gayah بالقرب من مدينة داغانا (Dagana) (1853/1922م) فهو الآخر أول من أقام زاوية بمدينة تيواون، وأول من أدخل فيها الشعر العربي في رأي الباحث.

قدم الحاج مالك سي إلى تيواون عام 1900م، وقيل في رواية أخرى عام 1897م حيث بنى فيها زاويته سنة 1902م، فالزاوية كانت ساعتئذ، تتألف من أربعة غرف حسب الرأي

¹-الدكتور عامر صمب، الأدب السنغالي العربي، ج1، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،

الذي أدلاه بول مارتري، وفوروصول الحاج مالك سي إلى تيواون أنشأ أول مسجد في المدينة، وبدأ ينشر الطريقة التجانية، ويفتح مدارس لتعليم القرآن الكريم، تعرف محليا باسم (دارا)، وتسمى عند المغاربة والموريتانيين بتسمية المحظرة أو الكتاب.

و يرتبط تاريخ هذه المدينة بكونها مرجعية إسلامية ومدرسة رائدة في التربية الصوفية مع قدوم الشيخ إليها سنة 1900م الميلادي وقيل أنه قدم إليها قبل هذا التاريخ بثلاث سنوات، وهو سنة 1897م، وعندما حطّ فيها الشيخ الحاج مالك سي رحاله قادما من شمال السنغال ماراً في طريقه بمدينة كيل Kél متجها نحو قرية انجاردى Ndiarndé، وهذه الأخيرة على بعد مسافة 60 كيلومترا من تيواون، وفي قرية انجادي أقام الشيخ مدة سبع سنوات مع مجموعة صفوة من التلاميذ ومن كبار مقدّميه رضوان الله عليهم، وهناك في انجاردى ربّاهم الشيخ ودرّسهم وأعدّهم إعدادا خاصا ودقيقا وذكيا ليكونوا لاحقا ومستقبلا على مستوى من المسؤولية، والبصيرة، والبيئة بأمر الدين وواعين بواقع العصر لمواجهة نشاط الاستعمار والوثنيين، وذلك عن طريق تعليم القرآن الكريم، وبحث التربية والثقافة العربية الإسلامية.

مدينة (تيواون) جامعة شعبية:

ولما وصل إلى تيواون اتخذها مقعلا لنشر الإسلام والطريقة التجانية، وخلال حقبة قصيرة من الزمن دانت له الدنيا والتف حوله الناس لحضور مجالسه العلمية، كما شهد على ذلك بول مارتري Paul Marty الكاتب الفرنسي في بحثه عن الإسلام في السنغال عند قوله: إن الخاصية المميزة لزاوية الحاج مالك بتيواون هي أنها تشكل جامعة شعبية حقيقية، فهي تُكوّن عددا ضخما من الأساتذة والمعلمين لعلوم الشريعة الإسلامية ثم ينتشرون عبر البلاد ويكونون بدورهم كوكبة من الأساتذة يساهمون على نشر مبادئ التعاليم الإسلامية

من خلال هذا الرأي يتضح لنا أن الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه بنى صرحا شامخا معرفيا وعلميا وأدبيا وأخلاقيا ومنارة تنبعث منها الإشعاعات الروحية والثقافة الإسلامية إلى أرجاء القارة السمراء. وإلى هذه المدرسة الشهيرة، يشير الشيخ سعد بن أبيه الشاعر الموريتاني مادحا الشيخ الحاج مالك سه، ومنوها بمكانة وسمو وشهرة

زاويته ومدرسته أو جامعته الشعبية ودورها الريادي في استقبال طلبة العلم وتكريمهم وتربيتهم تربية إسلامية¹ صحيحة وسليمة فقال:

على فائق الأقران مالك دهره	يعود سلام طاب ليس له حدّ
تطيب به الأفراح إن فاح نشره	وفي طيه من عندنا الودّ العهد
فـــــــــــــــــموجبه إنا جعلنا	يقوم به عنا لك الصمد الفرد
فإفضاله السامي عزيز مناله	وإن سامه المخلوق يقصر به الجهد
مدارسه في العلم خير مدارس	وأوراده في الذكر ما مثله ورد

مدينة تيووان ملتقى موسميا للمولد النبوي الشريف:

استطاع الشيخ بإشعاعه الروحي استقطاب أتباع كثر في المنطقة، وحول ورفع منزلة تيووان من درجة عاصمة مملكة كيُور إلى مرتبة عاصمة الطريقة التجانية في السنغال والمناطق المجاورة ثم أطلق الشيخ في السنة التي نزل عليها احتفالية لتخليد ذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم وتسمى كامو Gammou باللهجة الولوفية². وقد كان مولد صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين 8 أو 9 في شهر ربيع الأول. وأصبح موسما سنويا يحضره المسلمون، ويشاركون فيها سلالة الشيخ، من السنغال وخارجه وخاصة أتباعه من التجانيين، ويجري تخليد هذه الاحتفالية على امتداد البلاد، فإن كل منطقة أو قرية في البلاد تقيم احتفالها استجابة لدعوته وامتثالاً لأمره وندائه العام والموجه للجميع بقوله:

ألا عظموا ليل الولادة حسبة إذا لم يكن نحو الحرام عدول³

"فزاويته منذ عهد تأسيسها ارتبط اسمها بزاوية المتقنين، لقد كون أتباعه الذين تعلموا منه تكويناً ثقافياً وروحياً، كما وضع الشيخ تصانيف ومؤلفات وخصص جزء كبيراً منها للأمداح الدينية والتعليمية، التي أسهمت إسهاماً ملحوظاً في تقدم العلوم

¹ - (بول مارتي Paul Marty) بحث عن الإسلام في السنغال، هو من أبرز مؤرخي الإدارة الفرنسية الاستعمارية، وأحد كبار الضباط والإداريين الاستعماريين، ومن كبار المستشرقين الفرنسيين الملمين باللغة العربية، وكان متخصصاً ومهتماً بإسلام إفريقيا جنوب الصحراء، المرجع: موقع (غوغل) 2013/13م تاريخ الزيارة 25/ديسمبر 2020م، الساعة الثانية عشر ليلاً، ترجمة الباحث

² - شخصية الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه، دراسة تحليلية نقدية، بحث للطلبة التجانيين بالتواوين بمعهد محمد السادس لتكوين الأئمة، بالرباط، المملكة المغربية، ص 91

³ - الحاج مالك سه، الديوان، المحمديات، زاوية تيووان، ج 3، ص 48

الدينية، واللغة العربية وآدابها إلى الأمام ورفع معاني الطريقة التجانية في البلاد¹. ويحظى كتابه (خلاص الذهب في سيرة خير العرب) أكبر تقدير وإقبال، ويبلغ عدد أبياته ألفا وستين بيتا. ويقول العلامة محمد السعيد با في مؤلفه: (نيل الأرب من خلاص الذهب، شرح خلاص الذهب في سيرة خير العرب)"وقد ألفه الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه في فترة واحد وعشرين 21 يوما، ولاغرو لأن الإمام السيوطي ألف ألفيته في علم الحديث خلال خمسة أيام فقال:

نظمته في خمسة الأيام بقدره المهيمن العالم²

وكان الشيخ يحضر إلى المسجد لأداء الشعائر الدينية، وللوعظ، وتلاوة القرآن. ويتأسس أنشطة العبادات في الصباح والمساء. ولما نزل الشيخ على تربة تيواون واتخذها سكنا أصبحت المدينة تعد أكبر مراكز التأثير الصوفي والثقافة الإسلامية بالسنگال، باعتبارها مقراً رئيسياً للطريقة التجانية في منطقة غرب إفريقيا، وتحضن سنويا احتفالية كبيرة بمناسبة المولد النبوي الشريف وقدغير وعدل الشيخ سلوك جل سكانها بعد أن كانت اهتماماتهم تتجه إلى لملذات والحظوظ النفسية، والنزوع إلى اللهو والميل وحب الراحة و الدعة والطرب، والغناء، متأثرين، بطبائع و عادات وتقاليده موروثة من طبقة (تيدو Thiédde) التقليديين حلفاء الاستعمار، وعليه يبدو في الأمر بأن أهل تيواون أصيبوا بدهشة وإعجاب من هذا التغيير والتحول الجذري السريع الذي أحدثه الشيخ بمدينة تيواون، فيقول الدكتور عثمان جا في رسالته (لم يخطر ببال أحد من أهل تيواون الذين ألفوا الطرب واللهو والتقن في القول أن بقعتهم هذه ستغدو في يوم من الأيام منار من منارات الإسلام في بلاد كجور وقبلة يؤمها التجانيون وهواة الثقافة الإسلامية في كل وقت، وذلك لما رحبوا بالشيخ الحاج مالك سي ليقطنها ويستقر فيها داعية اسلاميا)³.

حضور المعالم الإسلامية في المظهر العام بمدينة تيواون: وأثناء مدة يسيرة من الزمن وتطور الحياة بمدينة تيواون التي أخذت منحى وتوجها جديدا ونزعة الروحية تمكن الشيخ أن يحول المدينة إلى معالم وحضور ديني وصوفي

¹ - سيدي أحمد سه الأمين مقابلة صحفية الموقع www.alaraby.co.uk

² - با محمد السعيد، نيل الأرب من خلاص الذهب، شرح خلاص الذهب في سيرة خير العرب، ج1، طبعة ثالثة، مركز النجاشي العلمي، فاس قناس، السنغال، 2012م، ص18

³ جا عثمان، المرجع السابق، ص 179

يلحظ زائر المدينة وجودا واسعا وكثيرا لأسماء (مشائخ الطريقة على أهم منشآت المدينة ومرافقها الصحية والتعليمية، والتاريخية والثقافية والرياضية)¹. وحتى جل أحياء السكن في تيووان تطلق عليها أسماء الشيوخ والخلفاء من سلالة الشيخ نفسه، أو اسم مؤسس الطريقة التجانية الشيخ أحمد بن محمد التجاني رضي الله عنه. أو أسماء المدن الإسلامية التي كانت لها ازدهار وشهرة في نشر الإسلام والعلم، أو أسماء تدل على أماكن الشعائر ذات الأبعاد الروحية. وهذه من نماذج بعض الأحياء بمدينة تيووان: حي المدينة المنورة، وحي منى، وحي جدة، وحي عرفات، وحي المزدلفة، وخاصة من المدن المغربية الشريفة مثل: حي بليدة، وحي عين ماضي، وحي أبي سمغون، وبعد أن استقرّ الحال للشيخ الحاج مالك بشكل نهائي بمدينة تيووان مقره الدائم. ثم افتتح مدرسته التي كانت تمثل جامعة شعبية لتعليم القرآن الكريم والعلوم الإسلامية والفنون العربية². ومن هذه الزاوية انطلقت شجرة التعليم والتربية والثقافة العربية الإسلامية لتتشق طريقها إلى ربوع السنغال وحتى إلى خارجها، وما كان الشيخ الحاج مالك قادرا على النهوض بهذه المهمة.

الشاقة التي تعد من أصعب الأمور لدى كل من يسعى حاملا مشروعا دعويا للتغيير العقدي والفكري والاجتماعي متشجرا ومقبلا على الله، لو لم يكن الشيخ يتوفر في شخصه مجموعة من المواصفات القيادية كالكفاءات العلمية والقدرات الفردية النادرة، والرؤية السديدة، أو البصيرة النافذة، والثبات على المبادئ والاعتصام بالقيم والمثل العليا، فلولا هذه السمات لكان من الصعب يحقق ويبلغ الشيخ إلى هذه الغاية الربانية النبيلة. ولكن كما يقال " إذا عرف السبب زال العجب". فإن ثقافة الشيخ الحاج مالك الرفيعة وتجاربه المتنوعة والغنية، وشهرة دراسته الموسوعية الفذة، وعلو كعبه في العلوم الشرعية، والفنون العربية، وكثر رحلاته وخبراته الثرة، وشخصيته المثالية، وعدم اهتمامه بزخارف الحياة الدنيا، فإن ذلك يوحى إلى مدى القوة والقدرة في التأثير الذي كان يتمتع به الشيخ الحاج مالك وأودع في شخصه القدوة رضي الله عنه.

وقد دون لنا بعض شعر هذه الزاوية جانبا من سماته ومواقفه الجريئة تجاه بعض الوقائع والأحداث ومكافحته ومحاربتة باللسان والقلم بعض الانحرافات والتصرفات

¹ - سيدي أحمد سه، المرجع السابق

² - سيدي أحمد سه الأمين، مقابلة صحفية، www.alaraby.co.uk

الجائرة السائدة والمنتشرة كانت في المجتمع السنغالي، والتي يتطلب تغييرها امتلاك روح صلابة وعزيمة، وجرأة الليث، وقد سجل الشعر هذه الشيم الفاضلة، كما سنرى ذلك لاحقاً، في انتاج الحاج منصور سهوخليفته الثاني حيث قال معبراً عن إعجابه بالشيخ الحاج مالك سه:

الله درك من شيخ يدل على مولاه قولاً وفعلًا يابنعثماناً
كالليث حلّ بأشبال على أجم فلا تقل لرماة حولها صيدوا¹

ولما أقيمت الزاوية ورأت النور بدأت تعطي ثمارها يانعة من تخريج دفعات وأفواج وجماعات من العلماء، مهتمهم الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والقدوة الصالحة، وكان من بينهم قراء، وأئمة، ومعلمون، ومربون، وأدباء، وغيرهم. فحملوا شعلة العلم والتربية الإسلامية، مقبلين على نشر الإسلام والطريقة التجانية في أرجاء البلاد، وخاصة في الأوساط والمناطق التي تمارس وتنتشر فيها الوثنية، ويستوطنها طبقة (تيدو Thiédodo) الموالين للاستعمار والمروجين لمشروعه السيادي، وكان أسلوب الشيخ بعد أن أتم وأكمل المتعلمون التعليم والتكوين على يديه، أو يحرزون القدر والمستوى المرجو من العلم والتربية، أو يبلغون مرتبة العالم يمنحهم الشيخ إجازات في الفنون التي تلقوها، وفي الشريعة، والطريقة، ثم يعينهم إلى المكان الذي يرى الشيخ أن لهم حاجة ملحة إلى من يعلمهم القرآن الكريم أو أمور دينهم، فهم عند الوصول إلى المنطقة المحددة يسировون على سيرة ونهج الشيخ الحاج مالك معلمهم المربي، الذي كان يرى عدم وجود أهمية وجدوى في استخدام العنف وحمل السيف لقتال الاستعمار، لأن المرحلة لم تعد صالحة وملائمة للجهاد.

يقول الشيخ سيدي أحمد سه الأمين "والشيخ الحاج مالك سه كان يتعامل مع الاستعمار بسياسة السلم، لأنه كان زعيماً سالماً، ولم ير فائدة في مواجهة الاستعمار، واختار أن يكون متفرغاً لتربية الأتباع وتعليمهم"².

فوظف عمره المبارك بين التعلم والتعليم والتأليف والتربية والوعظ، والإرشاد والعمل في المزرعة والتجارة، فقد أنشأ مزارع وحقولا، لتكوين أتباعه وتدريبهم على ممارسة العمل وكسب اليد والاعتماد على النفس ليكون عيشهم هنيئاً وبالحلم رخيماً. ويظهر هنا

¹ - الحاج محمد المنصور سه، ديوان مخطوط، في زاوية تيووان، السنغال

² - مقابلة صحفية، سيدي أحمد سه الأمين، الموقع www.alaraby.co.uk

نجله الحاج منصور سه يرسم لنا بريشة قلمه نبذة من النشاطات والحياة اليومية للشيخ
الحاج مالك سه بقوله:

فيوما تـراه لتدريسه ويوما لوعظ وهادي الأمم
ووقتا لتأليف مدح النبي ووقتا لمن شكره قد حتم
تلك هي المدرسة الفريدة التي أراد بها مؤسسها أن تكون ذات طابع فريد متميز عن
غيرها وقد طبقت شهرتها الآفاق، ودارت أخبارها بين العامة والخاصة حتى كانت
مضرب المثل في الأخلاق الكريمة السامية، والمثل العالية الفاضلة¹. فقال فيها ابنه
العلامة الشيخ محمد المنصور ومشيرا إلى جدول أعمال الشيخ اليومية في الزاوية:

للخلق في نفسه أطوار منفعة لله بالله ذا التقسم قاساه
طورا لتدريسه الفنون مع حكم يحار ذو الفهم فيها نعم فتواه
وتارة في أحاديث النبي وطو رافي التأليفلا تطمع قصاره²
أسلوب الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه مع الاستعمار:

وقد فضل الشيخ الحاج مالك سه منهج المصالحة والمسالمة مع الاستعمار وهو أسلوب
(لا حرب ولا سلم). أن الاستعمار أحكم قبضه على مجموعة الدول الغربية الإفريقية،
والدليل أن الشيخ الحاج لما بدأ دعوته الإصلاحية القائمة على التعليم وقد وجد أن
البلاد كلها محتلة³.

لأن الاستعمار أسقط جميع رموز المقاومة من الرجال والزعماء، ولكسب الوقت والزمن
وملاحقة العدو الغازي يرى الشيخ الحاج مالك سه بأن من العبث وضياح الزمن
والجهد مواجهة الاستعمار بالسلاح، وهذا الخيار السلمي قد مكنه وأكسبه كثيرا من
 وإنجازات مكاسب، فما كان يقدر هو أن يحرزه لو تبنى أسلوب المواجهة والعنف
والجهاد والقتال بالسيف وتجنيد الجنود، وهذا في رأي الباحث، وإلى ذلك يشير
الدكتور عثمان جا في بحثه قائلًا: (لقد نجح الشيخ الحاج مالك سي في أسلوبه السلمي
الذي سلكه مع المحتل الفرنسي فرفض فكرة الجهاد ضد أي أحد. لا يرى في ذلك

¹ - الحاج محمد المنصور سه، المرجع السابق

² - الحاج محمد المنصور سه، المرجع نفسه

³ - محمد ولد محم، العلاقات السنغالية الموريتانية، عبر الشيخ الحاج مالك سه (مدرسة تتيواون)
بالعلويين بحث مقدم لنيل شهادة الدراسات المعمقة، قسم اللغة العربية، جامعة شيخ أنت جوب، دكار السنة
2002/2003م، ص13

مصلحة للإسلام ولللمسلمين)¹. وهذا النجاح الذي أحرزه الشيخ هي ثمرة ووليد مجهودات وتضحيات بذلها على مدى من الزمن طويل، والهدف منه إنقاذ شعبه من ويلات الاستعمار، وتحريرهم من التبعية العمياء، والإقبال إلى ما هو أهم، ولذلك يقول ابنه وخليفته الأول الشيخ أبوبكر سه رضي الله عنه: "العقل من عرف زمانه واشتغل بنفسه".

ويرى الشيخ على يقين منه بأن أمثل طريق وأنجع وسيلة للوصول على ذلك هي التعليم والتربية الإسلامية، وأن المرء لا ينال سعادة الدارين إلا بالعلم والدين، فالدين يحرره من ربة العبودية والركون لسوى الخالق الأحد، والعلم يرشده إلى التمييز والمعرفة بين الصالح والفاقد، والقيام بمسؤولية ربانية والدور الجوهري الذي ينبغي أن يشتغل الإنسان ويعمر فيه الوقت استعمار في الأرض والقيام بمسؤولية الاستخلاف في الأرض، ولتحقيق هذا الهدف النبيل أعد الشيخ جيلا مثاليا وقدوة ونخبة صفوة مسلحة ومزودا بالعلم الصحيح للشريعة الإسلامية والسنة الشريفة. "أسس الشيخ زاويته أو مدرسته على مبدأ أنه إذا انتهى من تعليم أحد - من - أتباعه يأمره بالعودة إلى أهله أو إلى محلّ يفتقر سكانه إلى من يعلمهم القرآن الكريم والثقافة الإسلامية، من تعليم الناس ما حصل عليه من العلم"².

سواء في القرى والأمصار والمدن الحضرية لمواجهة هذا الواقع المتردي الذي جرّه المستعمر الغاشم بفرض ثقافته مستعملا وسيلة التعليم من جانب و وسيلة الترغيب بمنح سكان بعض المدن حق التمتع بالجنسية الفرنسية، هذا بقدر كما استعمل أسلوب التهيب بفرض قيود مشددة أمام معلمي القرآن الكريم من ناحية أخرى، ففي السنغال فقد أحكم الاستعمار سيطرته على المدن الحضرية الأساسية، وأقام مدارس، ووضع نظام تعليمه وقرّر مناهجه الدراسية، وأثرفي البنية الاجتماعية حيث بنى مدرسة في تليميديموريثانيا، وأخرى بمدينة سنلوى في السنغال لتعليم وتكوين أبناء الطبقة الأرستقراطية من أجل كسب موالاتهم وتعاطفهم معه، واستخدمهم لتنفيذ مشروعه

¹ - عثمانجا، المرجع نفسه، ص 178

² - شخصية الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه، دراسة تحليلية نقدية، بحث للطالبة التجانيينالتواونيين بمعهد محمد السادس لتكوين الأئمة، بالرباط، المملكة المغربية

التوسعي¹، ولكن الشيخ يبطل ويدراً الخطة التي دبرها الاستعمار بهمة عالية وعزيمة سباقة بتنمية الوعي الديني والوطني لأتباعه، مناضلاً باللسان والقلم، حتى تفتقت وانشرحت له قلوب طالما كانت مسدودة، رافضاً أسلوب المواجهة العسكرية، كالجهاد لترحيل الاستعمار، لقد قرر واختار الشيخ هذا الرأي، واتخذ هذا الموقف في ذلك العصر لمعرفته أحوال الناس ومتطلبات الوقت². ولاغرو في ذلك، فهو شيخ صوفي، يعرف كيف يسير ويدير أوقاته ويوظف طاقاته، ويقال بالمثل الصوفي بأن "الصوفي ابن وقته". ها هو نجله، خليفته الأول، الشيخ أبوبكرسه المشهور باسم (الشيخ الخليفة) الذي قد نظم قصيدة طويلة لتقريظ مؤلف والده الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنهم، القيم الجم الفوائد (خلاص الذهب في سيرة خير العرب "منوها على غزارة العلم والثقافة الموسوعية ويصف الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنهما، - بأنه بحر خضم، ولايطاول مداه ولايجارى في الفنون والعلوم النقلية والعقلية الشرعية منها واللغوية. والقصيدة رائية، من بحر الطويل، ونورد منها هذا البيت الآتبع لما بأن قدرا كبيرا منها سيذكر محلها خلال هذه الدراسة، فقال:

وكل فن لسان الحال قال له ألق العصا تلق من تيسير ما عسرا³
ومن ناحية ثانية، فقد استعرض نجله وخليفته الثاني الحاج منصور سي رضي الله عنه، الشاعر فحل ويصوغ لنا شعرا يدون ويصف فيها أخلاق والده الشيخ الحاج مالك سي رضي الله عنهم الفاضلة الرفيعة، وشيمه السامية ونفسه الأبية، وقيامه بمجهودات فكرية مضنية، أبلاها بلاء حسنا، ويذكر الخصائص الروحية التي اتسم بها الشيخ، والرصيد العلمي الزاخر الذي قد تبحر به، ويمدحه مقررًا بأن الله عز وجل قد وفق الشيخ لحاج مالك سه، هياً له شروط النصر لإلحاق هزيمة على جيوش البدع، والدحض، والزعزعة والدك على أركانها من هارة، وحطم أعلامها منتكسة، حيث عدد مجموعة هذه الصفات الحميدة، من خلال قصيدة أخرى وصف الشيخ الحاج محمد المنصور سه نفسه، مشيراً إلى أن الشيخ الحاج مالك سه والده وشيخه المربي كان طبيياً عالماً، خبيراً، ذا موهبة في معرفة علل النفوس وأمراضها، وبالتالي فهو قادر على

¹ - الدكتور عمران كبا، الشعر العربي في الغرب الإفريقي، خلال القرن العشرين الميلادي،

إيسيسكو، 1432هـ/2011م، ص33

² - عثمان جا، المرجع السابق، ص176

³ - أبوبكرسه، ديوان، مخطوط، في زاوية مدينة تيووان، السنغال.

إزاحتها وعلاجها ومداوتها، وأنه يهدي النفوس التائهة إلى برّ الأمان، ويروي الأرواح المتعطشة بماء الوصال والوقوف إلى عتبة الحضرة الربانية لمعرفة الله تعالى ومحبتة، وأن الشيخ كان يقوم خير قيام على ساق الجدّ لهداية ورياضة النفوس البائسة الضائعة الضالة، قابضاً بزمام سيرها، حتى تبلغ سفينتها راسية على شاطئ الأمن والسلام والنجاة من الردى، بقوله:

رضت النفوس لدين الله تربية إبليس ما ابتستمت منه
وقدامتدحه خليفته الأول - الذي مر ذكره سلفاً - الشيخ أبوبكر سي رضي الله عنه في مواطن عديدة، مقرراً بأن الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه، لاغنى عنه من وجوده في هذه البلاد وفي هذا الزمان، بقصيدة نونية من بحر الكامل:

لولا وجودك في الزمان أماتنا ظمأ الوصال وكثرة الجولان¹
يقول الدكتور عامر صمب: "الحاج مالك سي أنار الله لنا بيننا بنور شمسه الذي نشر التجانية في السنغال، وبنى زاويته في تيواون..... هي الزاوية الكبرى لمن تبع طريقة الحاج مالك سي من التجانيين"². ويفهم من سياق هذا النص بأن الشيخ الحاج مالك أحى معالم الإسلام في هذا القطر الغربي الإفريقي عموماً وربوع السنغال خصوصاً، هذا في الزمن الذي قد تعرض فيها الإسلام للطمس، والهجمة والإساءة. وقد جاء الشيخ الحاج مالك سه معلماً، ومربياً داعياً، ومصلحاً وأعاد للإسلام حيويته وللطريقة التجانية نشاطه. وقد وضّح الدكتور عثمان جابأن كثيراً من الأوساط العلمية تقوم بدراسة أبحاث عديدة وتعدّد ندوات ولقاءات علمية لإبراز أهمية ومكانة ودور هذه الزاوية التجانية بقوله: "وليس اهتمام الدارسين والباحثين في الثقافة العربية الإسلامية وفي الطرق الصوفية بالسنغال، بهذه الزاوية قديماً وحديثاً سوى مظهر من مظاهر نفوذها وحضورها في إسلام هذا البلد الإفريقي وفي ثقافته الإسلامية الروحية، فالدراسات المنجزة حولها بالفرنسية والعربية قديماً وحديثاً كثيرة كثيرة تخيل للمرء إلى الأسباب أن التجانية كلها ملك لتيواون، وإن وجدت مراكز تجانية أخرى في البلاد."³ وأثبت أيضاً عامر صمب هذه الحقيقة الواقعة في كتابه: "بأن مدينة تيواون من أهم مراكز الثقافة التي

¹ - الشيخ أبوبكر سه، المرجع السابق.

² - عامر صمب، الأدب السنغالي العربي، ج1، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م،

ص35

³ - عثمان جاب، المرجع نفسه، ص171

قد سار بصيتها الركبان إلى ما جاوز حدود السنغال من البلدان وقد علا بها الحاج ملك سي إلى مادون الثريا قبل مائة عام تقريبا، وهي ما اقترن الإسلام والأدب بالسنغال.....الذي نشر الطريقة التجانية في السنغال، في الحقيقة، إذ لم يبق أثر ذوبال عن الشيوخ المجاهدين مثل الحاج عمر وأحمد شيخو ومابه جخ من جهة النفوذ الصوفي"¹

يشير عامر صمب في رسالته إلى ما حققه الحاج مالك سي من جلائل الأعمال وفي مجالات عديدة من نشر الإسلام، ورفع شأن الطريقة التجانية، وبالتالي إعادة روح الحيوية والنشاط للتصوف، وفي مجال العلم و الأدب الإبداع في فن الشعر، وفي ميدان الاجتماع سعى جاهدا لتغيير الواقع السيئ والردىء الذي قد جثم على صدر المجتمع، وأنهاك قواه، وعلى الرغم من تعدد هذه الجبهات وحدة الأزمات، وقلة العد والعتاد لم يمل الشيخ لم ييأس ولم يتوان، بل أصر وبقي صامدا حاملا ورافعا للإسلام ولثقافته العربية الراهية عالية خفاقة، ومتوكلا على الله واثقا بنفسه على أنه سيكون حليف النصر، فواصل السير على الدرب لتحقيق مهمته.

ولم يتراجع قيد أنملة عن موقفه الشريف، ولم يتوان بسبب تراكم العقبات التي كانت تعترض سبيله، فقد توكل على الله تعالى، متوشحا برداء من الصبر والمثابرة، راضيا بقضاء الله وقدره، وملتصبا رحمته ولطفه الخفي، فقال متوسلا إلى الله تعالى:

أشكو إلى الله حاجا ليس سواك ياربنا يا الله

ورضني بالقضا رب مصبرني على بلائك يا رحمان

وما السفينة ترجى غير عظمى العميمة كلّ الخلق يا

وهكذا كان يسعى الشيخ للوصول إلى الغاية التي ترنو وإليه عينه ويصبو إليه، وهو تجديد أمر الدين الإسلامي، والإصلاح، وإعلاء الطريقة التجانية باعتبارها ونظيراتها من الطرق الصوفية كلها قلاعا وحصون تمنع الإسلام وتحميه من الهجمات والمساس لمحارمه. فقال رضي الله موضحا وحدة الهدف لجميع الطرق:

والطرق كلها إلى الرحمان مسلكة موصلة يا جان²

¹ - عامر صمب، المرجع السابق، ج1، ص35

² - الشيخ الحاج مالك سه، ديوان، بزوايته، تاون، السنغال

يقول عثمان جا: "ولقد استطاع الشيخ الحاج مالك سه أن ينفخ في التجانية روحاً جديدة ويمنحها دينامكية حية بعدما عرفت نوعاً من الركود والبرودة نتيجة موت زعيمها الكبير الحاج عمرا لفوتي، وبعض خلفائه الذي حملوا السبحة التجانية لنشرها لأنهم اصطدموا بالقوة الاستعمارية المتحالفة مع الوثنية...."¹

ما هي عند الحرية عند الشيخ الحاج مالك سه؟

فالشيخ الحاج مالك سي هو عاش ناشراً للطريقة التجانية في السنغال وفي غرب إفريقيا، وقد اعتنى بنشاطه التربوي على إعداد الإنسان حراسوياً مستقيماً، باعتباره أن الإنسان هو العنصري الأساسي و الجوهرى الذى يبنى ويصنع الحضارة، ويكون قادراً بأداء دور المستخلف في الأرض والمستعمر فيها، ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق العلم، واتباع الدين الحنيف فقال الشيخ الحاج مالك رضي الله ملتسماً من الله جل وعلا أن يجعله عبداً حراً في كافة النواحي، بحيث لا يتعلق قلبه في أية حالة من الحالتين رغبة ورهبة ولا ينساق إلى أي مخلوق، بل ينقاد لله وحده فقال:

ألاهمتي فاجعل إلهي عليّ لأن صرت حراً خالصاً كل وجهتي

لقد مر الشيخ بمراحل عديدة لتنفيذ مشروعه الإصلاحى، ولتحقيق طموحاته المرتكزة على التعليم والتربية. وأهم الأطوار من الزمن التي مرّ بها الشيخ هي مرحلة أومدرسة قريّة انجاردندé Ndiardé ويلاحظ بأن جل الذين لازموا الشيخ فيها كانوا علماء متبحرين في فنون كثيرة، وقبل لقائهم بالشيخ كانوا أرباب مناصب ومسؤوليات دينية عالية، فمنهم مثلاً من هم حملة القرآن الكريم، أئمة أو قضاة وإلى غير ذلك. فالنمط التدريسي الذي كان يزاوله الشيخ في هذه المدرسة الأنجاردية كانت بمثابة دروس أكاديمية، بحكم طبيعة الناس الموجودين فيها، أصحاب مستوى رفيع، وذوي مستويات وكفاءات عالية³.

ويرجع سبب تقاطر هذا الوفد إلى الشيخ في انجاردلما تلقونه إثر عودته من الحج، بأنه قام مدرسة شعبية للتعليم والتربية، فتبادروا إلى قرية انجاردللاستزادة والاستفادة من زلال مائه المعين الثر. وأما المرحلة الثانية ومن ميزاتها وسماتها أن الجماعة من

¹ - عثمان جا، المرجع نفسه، ص 171

² - الحاج مالك سه، المرجع نفسه.

³ - عثمان جا، المرجع السابق، ص 183

العلماء والطلبة الذين صحبوا الشيخ في زاويته (تياوان) يختلفون عن أولئك السابقين في قرية انجارد، والفارق بينهما أن الدراسة التياوانية دون الدراسة الأنجاردية في المستوى والدرجة، وبالتالي فإن التعليم في زاوية تياوان كان مفتوحاً أمام الجميع، بغض النظر عن المراتب العلمية والمستويات الثقافية، ومن هنا يظهر أن الدرجات فيها متفاوتة، ولهذا كانت الدراسة في مرحلة تياوان تهتم وتراعي الفوارق الفردية¹. وقد صنف الشيخ الدراسة جملة طلابه في زاوية تياوان، -لدى نزوله فيها- إلى فئات وقسم أطوار التعليم إلى مراحل عديدة حيثينجم عن ذلك وجود عدد من الحلقات والمجالس، بعضها يستقبل فيها التلاميذ المبتدئون لتحفيظ القرآن الكريم، والبعض الآخر يخص لذوي المستويات المتوسطة، والفئة الثالثة للمتفوقين، وكان الشيخ يدرس كل تلميذ على حدة، ثم يسند تعليم ذوي المستوى الأدنى إلى من هم فوقهم من في الزاوية².

قائمة المصادر والمراجع

العربية:

- 1 - الدكتور عثمان جاه، التجانية في الأدب السنغالي العربي، ط1، مطبعة أرمتان، 2017م
- 2- بول مارتي Paul Marty، بحث عن الإسلام في السنغال
- 3- محمد السعيدبا، نيل الأرب من خلاص الذهب، شرح خلاص الذهب في سيرة خير العرب، ج1، طبعة الثالثة، مركز النجاشي العلمي، بفاس قناس، السنغال 2012م
- 4 - شخصية الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه، دراسة تحليلية نقدية، بحث للطلبة التجانيين التياوانيين بمعهد محمد السادس لتكوين الأئمة، بالرباط، المملكة المغربية.
- 5 -مقالة حول مدينة تياوان، السنغال، الموقع www.aljazeera.net
- 6- مقابلة صحفية، سيدي أحمد سه الأمين، الموقع www.alaraby.co.uk
- 7 -الحاج محمد المنصوره، ديوان مخطط
- 8 -محمد ولد محم، العلاقات السنغالية الموريتانية، عبر الشيخ الحاج مالك سه (مدرسة تياوان) بالعلويين، بحث مقدم لنيل شهادة الدراسات المعمقة، قسم اللغة العربية، جامعة شيخ أنت جوب، دكار، السنة 2002/2003م

¹-الطلبة التجانيينالتياوانيين، المرجع السابق، ص37.

²- الطلبة التجانيين التياوانيين، المرجع نفسه، ص37

9 -الدكتور عمران كبا، الشعر العربي في الغرب الإفريقي، خلال القرن العشرين الميلادي، إيسيسكو، 1432هـ/2011م.

10 - الشيخ أبوبكر الخليفة، ديوان مخطوط بزاوية تيواون، السنغال

11 - الشيخ الحاج منصور سه، الأول، ديوان مخطوط، بزاوية تيواون، السنغال

12-الدكتور عامر صمب، الأدب السنغالي العربي، ج1، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م

13 -الشيخ الحاج مالك سه، ديوان مطبوع، بزايته، تيواون، السنغال.

المراجع الأجنبية:

14/ Atoumane Ndiaye Doumbia, (Tivaouane en image: L’histoire de la ville depuis 1886), Maguilien, 2011.

15/ M.CHAILLEY ET Autres, Notes et études sur l’islam en Afrique noire, Université de Paris